

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الثالثة - العدد الحادي عشر - خريف ١٣٩٢ ش / أيلول ٢٠١٣ م

ص ١٤٦ - ١٣١

## دراسة نقدية لعنصر اللون في أشعار بدر شاكر السيّاب الأسود والأبيض نموذجاً

نرگس أنصاری\*

طیبة سیفی\*\*

### الملخص

يعدّ اللون عنصراً هاماً من عناصر الطبيعة والذي لفت انتباه الإنسان منذ القديم وسحر روحه، فاهتمّ به الشعراء المعاصرون أكثر من الآخرين؛ لأنهم عرفوا الألوان المتنوعة وتأثيرها فتعلّقوا بها تعلقاً وثيقاً واستعانوا بها في صورهم الشعرية. ومنهم الشاعر العراقي المعاصر بدر شاكر السيّاب الذي يعتبر من رواد الشعر الحر وأكبر الشعراء المعاصرين. إذ تمتلك الألوان خاصة الأبيض والأسود، دوراً هاماً في أشعار السيّاب، فلذلك تسعى المقالة هذه إلى أن تكشف عن أهمية هذين اللونين في أشعار هذا الشاعر المعاصر وتدرس دلالاتهما المختلفة بعد استخراجهما عن مجموعاته الشعرية وتحليلهما عبر رسوم بيانية وجداول تدلّ على الدلالات المختلفة للونين وأهميتهما في معرفة حالات الشاعر النفسية والروحية. دراسة اللونين في أشعار السيّاب تبين لنا أن اللون الأسود أكثر استعمالاً في شعره وهو ممّا يدلّ على غلبة مشاعر الحزن والكآبة على روح الشاعر ونفسيته ومن جانب آخر تقارب اللون الأبيض من الأسود في شعره يكشف لنا عن رجاء الشاعر وأمله إلى المستقبل، إضافةً إلى ذلك أن هذين اللونين يظهران مشاعر الخير والشرّ والحرب والصلح عند الشاعر في مواطن كثيرة. الكلمات الدليلية: اللون، الصورة الشعرية، بدر شاكر السيّاب، اللون الأسود، اللون الأبيض.

\*. أستاذة مساعدة بجامعة الإمام الخميني الدولية، إيران.

\*\* . أستاذة مساعدة بجامعة الشهيد بهشتي، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. علي الضيغمي

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/٢/٢ هـ. ش

T\_seyfi@sbu.ac.ir

تاريخ القبول: ١٣٩٢/٦/٥ هـ. ش

## المقدمة

إنّ اللون هو أول خصوصية يجذب المشاهدين، فيعجبهم أو يؤدى إلى حزنهم. يعدّ اللون فى الأدب «أداة أساسية للتصوير والذى يرتبط توظيفها بالزمان والبيئة واللغة والتراث وإبداع الأديب وذوقه الفنّي وعوامل أخرى.» (درياب، ١٩٨٦م: ٤١) «والتعمّق فى الآثار الأدبية تثبت أن استخدام الألوان فيها ليس من الصدفة، كما لم تستعمل فيها لمجرّد التزيين؛ بل توجد صلة وطيدة بين اللون ومستويات النصّ البنيوية والبلاغية والتعبيرية.» (عصفور، ١٩٨٣م: ٢٨١)

«إنّ الألوان التى تعتبر من الظواهر الواقعية فى الصور الشعرية تشتمل تراثاً ثقافياً يحتوى بنية الثقافات الأسطورية والحضارية ولها دلالات لغوية.» (محمد على، ٢٠٠١م: ١٩٣) «يتجاوز دور الألوان عن الدلالة المعجمية إلى المعانى الإيحائية؛ لأنّها من العناصر الحية فى بنية النصّ خاصة عندما تزيد الأصوات والحركات والموسيقى. إنّ معنى الألوان الدلالية تتغير بناء على حالة الشاعر النفسية والموقف الذى يتحدّث فيه.» (محمد عبيدات، ٢٠٠٤م: ٣١١) إذا اهتم الكتاب والأدباء العرب والشعراء منهم خاصة إلى الألوان واستعانوا بها فى صورهم الشعرية وبما أن اللون يعدّ عنصراً هاماً فى بنية القصيدة الفنّية ويلعب دوراً هاماً فى تكوين صورها الشعرية وكما نجد الكثير من التشابيه والاستعارات والكنايات قد بنى على التوسيع فى معانى الألوان، فكانت هى عنصراً من العناصر المكوّنة للصور من القديم والأدوات الفنية التى كانت تزيد القصيدة جمالاً.

أما الشعراء المعاصرون فيعتنون بالألوان عناية بالغة لما فيها من أنواع ولعلمهم بها ولتعمّقهم فى عناصر العالم منها الألوان. ومما يجدر بالعناية الأكثر هو أنّ اللون كيف يرتبط بالعالم الذى يخلقه الشاعر ويؤثر على شعريّته وخياله.

واللونين الأسود والأبيض يعتبران من الألوان الأولى التى تعرّف عليهما البشر ولهما دلالات مختلفة، فيحتلان مكانة خاصة فى أشعار الشعراء لاسيّما المعاصرين ومنهم السيّاب الذى يعدّ من رواد الشعر الحر، وقد تميّز شعره بميزة خاصة باستخدام الألوان.

## خلفية البحث

هناك بحوث سبقت هذا البحث بصورة عامة، منها ما قام بدراسة الألوان في الصور الشعرية في الشعر الجاهلي خاصة بعض المعلقات كـ: "الأساس الواقعي لجماليات اللون في شعر الأعرية" لخالد زغریت و"اللون في الشعر العربي قبل الإسلام قراءة ميثولوجية" لإبراهيم محمد علی و"اللون في القصيدة العربية" لمحمد حافظ دياب. كما يتناول بعض المقالات المطبوعة داخل البلد أيضاً أشعار المعاصرين ومنها ما نشرناها في المجلات المحكّمة كـ"دلالتهاى نمادين رنگ سبز در شعر حجازى" و"زیبایشناسى رنگ آبی در أشعار عبد الوهاب البیاتی" وغيرها. وقد عالج مرتضى قائمى فى مقالته "كاربرد رنگ در تصویرپردازیهای محمود درویش" والتي نشرها فى مجلة "أدب المقاومة" فى کرمان أشعار هذا الشاعر الفلسطينى. هناك مقالة أخرى عنوانها "عنصر رنگ در رمزگرایی محمود درویش" لمنصورة زركوب، إلا أنّ المقالة هذه تناولت ولأول مرة دراسة اللونين الأبيض والأسود فى شعر السيّاب بأسلوب إحصائى ودراسة نقدية تحليلية. لأن اللونين قد اتخذوا دلالات متنوعة مختلفة فى شعر الشاعر فيزيديانه جمالاً وفناً. إضافة إلى ذلك ثمة أسباب جغرافية وذاتية فى حياة السيّاب تؤثر عليه فتدفعه إلى أن يستخدم اللون بمعانيه المعجمية والرمزية والإيحائية متأثراً بما واجهه من الحوادث المرّة فى مراحل حياته الشعرية. المعانى التي قد تتخذ دلالات متضادة لا يمكن فهمها وتحليلها إلا بمعرفة حالاته النفسية والروحية. فلذلك تطرقت المقالة هذه إلى دراسة وتحليل الأشعار التي استخدم فيها السيّاب اللونين مع دلالاتهما ومعانيهما الرمزية وغيرها بعد مقدمة تمهيدية عن حياة الشاعر ومراحلها المختلفة وهي التي تسبب الدلالات الرمزية فى أشعاره، ثم نواصل دراسة الأشعار وما فيها من اللونين الأسود والأبيض ونقوم بتحليلها وفقاً لأسباب وعوامل مختلفة ذاتية واجتماعية وسياسية مضافاً إلى ذلك الجدول الإحصائى الذى يبيّن كمية استخدام اللونين فى أشعار الشاعر.

## نظرة عابرة إلى حياة الشاعر

إن تجربة الشاعر الشعرية فى حياته الذاتية والاجتماعية تؤثر على مشاعره وتؤدى

إلى إنتاج الشعر، فلذلك يجب على الدارس أن يعرف ما مرّ به الشاعر من مختلف التجارب خاصةً في العصر الحاضر؛ لأن المعاصرين من الشعراء أكثر استقلاليةً من غيرهم، يستخدمون الشعر كأداة للتعبير عن أحاسيسهم ومعتقداتهم. «فالأحداث السياسية والاجتماعية تّمت بصلة وثيقة بالمفردات التي يختارها الشاعر في معجمه الشعري خاصة الألوان والسيّاب لا يستثنى من ذلك بل دراسة حياته ضروري لاتصال شعره بمراحل حياته المختلفة. فأشعاره تعكس حزن بلاده العراق خاصةً وبلاد العالم الثالث.» (بيضون، ١٩٩١م: ١١)

ولد بدر شاكر بن عبد الجبار بن مرزوق السيّاب سنة ١٩٢٦م في قرية "جيكور" الواقعة بجنوب العراق؛ ماتت والدته في السادسة من عمره، فتولت شأنه جدته بعد أن تزوّج والده من زوجة أخرى. قضى دراسته الابتدائية في العراق فقصد البصرة ليوصل دراسته. كان السيّاب ينشد الشعر منذ المرحلة الابتدائية. التحق سنة ١٩٤٣م بمعهد المعلمين ببغداد واختار العربية للدراسة، لكنّه انصرف عن الدراسة بعد عامين واشتغل بدراسة اللغة الإنجليزية وهو تأثر باليوت الشاعر الإنجليزي الشهير. اشتهر السيّاب بأنه من روّاد الشعر الحر وكان أول تجربته الشعرية فيه قصيدته "هل كان حباً" في عام ١٩٤٧م. كانت لحياة الشاعر المضطربة بالغ التأثير على شعره. يمكن أن نقسّم حياته إلى مراحل أربعة:

١. المرحلة الرومانسية: (١٩٤٣م - ١٩٤٨م) فالأحداث المرّة التي شهدتها الشاعر خلال هذه السنوات في حياته الأسرية جعلته يتمسك بعالم الخيال والرؤيا بعد أن رفض الواقعية. فيمتاز شعره في هذه المرحلة بمحاكاة القدمات كما كانت النشاطات الشيوعية قوية في العراق، فالتحق بها كثير من الشباب العراقيين منهم السيّاب.
٢. الواقعية: (١٩٤٩م - ١٩٥٥م) تغيّر فيها نزعة الشاعر نحو الحياة الاجتماعية فتحول شعوره الفردي إزاء المصائب إلى شعور جماعي فقصائده "فجر السلام"، و"أنشودة المطر"، و"الأسلحة والأطفال"، و"الموسم العمياء" تعكس هذا الشعور.
٣. التموزيّة أو الواقعية الحديثة: (١٩٥٦م - ١٩٦٠م) يتمسك الشاعر في هذه المرحلة بعالم الأسطورة والرمز ليحفظ نفسه من الضغوط السياسية فيعبّر عمّا يشاهد

في واقع حياته بالرمز منها قصائده: "مدينة بلامطر"، و"جيكور" و"المدينة".  
٤. الذاتية أو العودة إلى الذات: «تبدأ من ١٩٦١م عندما يصاب الشاعر بالمرض إلى أن يفارق الحياة في ١٩٦٤م. يميل الشاعر فيه إلى الذاتية. كان شعره متأثراً بما كان يعانيه الشاعر من الفقر والمرض فيعود إلى ماضيه للخلاص من مشاكلكه فيذكر ذكرياته الماضية، ويشكو من الدهر... فالأفكار هذه تتجلى في دواوينه الثلاثة "المعبد الغريق"، و"سناشيل ابنة الجلبى"، ومنزل الأبقان".» (بلاطه، ٢٠٠٧م: ١١٩-٨١؛ عباس، ١٩٨٣م: ٩٩-١٧؛ توفيق، ١٩٧٩م: ١١٦-٤٥؛ سيّاب، ٢٠٠٠م: ٣٤-٥)

#### - دراسة الألوان في شعر بدر شاكر السيّاب

##### - اللون الأسود

الأسود ما ليس فيه لون ولا ضوء يعادل الليل والظلام ومن أهم خصائصه أنه لون «فيه الصمت والسكون وعدم الحركة و بما أنه يؤثر في خمود الجسم والروح يسبب الحمول وتقليل النشاط». (أكبرزاده، ١٣٧٥ش: ٧٩) «يرمز الأسود إلى الحزن والخوف والخفاء والغموض والسرّ والموت والوحشة والقلق كما أن البعض يراه لون الشيطان وهو لون الجريمة والسرقة كما أنه لون المأتم والحداد واستخدام مفردات: العام الأسود، والمجاعة، والثوب الأسود يدلّ على تأثيره السلبي». (شى جى وا، ١٣٧٧ش: ٢٩)

الأسود من أوضح الألوان في أشعار السيّاب وأكثرها استعمالاً ولها دلالات مختلفة يدلّ عليها النظام الشعري. الحزن والظلم واليأس من أوسع الدلالات الرمزية للون الأسود في شعره فقد استخدمه الشاعر تأثراً بمجتمعه وبيئته أو استخدمه من أجل خصائصه النفسية في الإقبال على هذا اللون؛ لأنه شاعر حزين مهموم ومرجع حزنه هذا هو المصائب التي تحملها الشاعر في طفولته كما يعود إلى عدم نجاحه في الحب أيضاً وبما أن الشاعر يميل إلى الاجتماعية في المرحلة الواقعية من حياته (١٩٤٩م-١٩٥٥م) فيتضمّن شعره مضامين الفقر والجوع عند شعبه والظلم الذي كان يسود على أرجاء مجتمعه الذي كان يتنازع بين السنة والحداثة والتجّد والقديم، فانعكس كل هذا في شعر شاعر مبدع كالسيّاب. كما كان مرضه الذي أصيب به في نهاية عمره سبباً هاماً

فى استخدامه الأسود ليرمز إلى ما يدور فى ضميره من الآلام والهموم. فالليل الذى من أكثر الرموز الاجتماعية فى شعره يدل على ما نقول، فأصبح الأسود فى شعره رمزاً للظلمة والظلم والحزن واليأس:

«يا وفيفة/ والحمامُ الأسود/ ياله شلالُ نورٍ مُنطَفِي / ياله نهرٌ ثمارٍ مثلها لم يقطف.»  
(سياب، ٢٠٠٠م: ٩٣/١)

إن الفشل فى الحبّ والحزن الذى ألمّ به إثره، دفعه إلى أن يرى حبيبته حمامة سوداء وهى «رمز الظلمة والضياع والحزن.» (الصانع، ٢٠٠٣م: ١٢٧) فالحزن الذى غلب على الشاعر إثر ضياع الحبيب والفراق عنه، جعله ليستعين بدلالة الأسود الرمزية، فيصفه حماماً أسود والنور المنطفئ والثمر الذى لم تقطفه يد الشاعر.

كما فقد الشاعر فى طفوليته حنان الأم، فبدأ يبحث بدله عن علاقة مع كثير من الفتيات إلا أنها باءت بالفشل كلها فتكدّر حياة الشاعر خلال هذه السنوات التى تمتاز بالحرمان فيسرى الأسود إلى شعره ليبدل على حزنه وألمه:

«مَضَتْ عَشْرٌ من السنوات، عشرة أدهر سُود.» (سياب، ٢٠٠٠م: ١٠٧ / ١)

فهو يهرب من الليل الذى يذكره بأحزانه ويبعث فى نفسه الخيفة والألم والهمّ فيطلب الشمس ألا تغرب:

«قَفِي، لا تغربى، يا شمسُ، ما يأتى معَ الليلِ / سوى الموتى. فَمَنْ ذا يرجعُ الغائبَ للأهلِ / إذا ما سَدَّتِ الظُّلَمَاءُ / دَرُوبًا أُمِّرَتْ بِالْبَيْتِ بَعْدَ تَطَاوُلِ المَحَلِّ؟ / وإنَّ الليلَ تَرَجِفُ أكْبَدَ الأطفالِ من أشباحِهِ السوداء.» (المصدر نفسه)

وعندما يخيم على شعره أجواء الألم من المرض والغربة والفراق عن الأحبة والأسرة فى آخر عمره، يجد حياته سوداء تشبه الليالى التى تمرّ به فى مدينة لندن بليالى الموت. والسهر والبرد (وهو رمز الحياة الغربية) والضجر يدل على احتضاره فى الغربة، فلذلك يتمنى أن يعود إلى وطنه ليتنفس من هواء وطنه ويلمس جسمه تراه وينحدر ماؤها كالدم فى عروقه وأخيراً يأمل أن يدفن فى تراب وطنه:

«فى لندن، الليلُ موتٌ نزعهُ السَّهْرُ / والبرَدَ والضَّجْرُ / وغرْبَةٌ فى سِوَادِ الليلِ سوداءُ / يا ربِّ يا ليتَ أنى لى إلى وطنى / عودٌ لثَلثَمِنى بالشمسِ أجواءُ / منها تنفست روحى:

طينها بدنى / وماؤها الدُم في الأعراق ينحدرُ / يا لَيْتَنِي بَيْنَ مَنْ فِى تُرْبِهَا قُبِرُوا.»  
(المصدر نفسه: ١٥٣/١)

وعندما يتحوّل السياب من شاعر رومانسى إلى شاعرٍ ملتزم اجتماعي يستخدم شعره لبيان أغراضه السياسية والاجتماعية والمشاكل الإنسانية، فلشعره فى هذه المرحلة أهمية خاصة، يتخذ الألوان مضامين ودلالات جديدة. أما الأسود، فيدلّ على ظلم الحكام المستبدّين على البلاد والدمار الذى تسببه الحرب فهو واضح فى قصيدة "فجر السلام" التى يقابل الأسود فيها الأبيض وهو تقابل الحرب والسلام والخير والشر. فيحاول الشاعر أن يستخدم كل آليات الكلام ليصف جمال السلام وما يتأتى على الحرب من مظاهرها وأنها كيف فتحت فاهها لتأكل كل ما يقابلها:

«شَدَقُ يَزِيدُ اتِّسَاعًا كُلَّ مَا رُفِعَتْ / سِتْرُ الدُّجَى حَقَّقَتْ مِنْ كَوَكِبٍ غَرْبًا / أَلَى عَلَى  
الأَرْضِ أَنْ يَجْتَثَّ عَالِيهَا / سَفِلا وَيَصْفَعُ مَنْ يَأْتِي بِمَنْ ذَهَبًا / وَلَا يَرِيقُ دَمًا إِلَّا وَأَضْرَمَهُ /  
نَارًا وَ ذَرَى رَمَادًا مِنْهُ أَوْ هَبًا.» (المصدر نفسه: ٤٤٩/٢)

وقد يحصى الشاعر آثار القنابل الذرية من الدمار والهلاك والموت محاولاً أن يقارن بين خوفه عنها وبين قصة قابيل الذى يرمز إلى إنسان ظالم سفاك:

«ظَلُّ لِقَابِيلَ أَلْقَى عَبءَ ظَلْمَتِهِ / فَحَمًا يَسُودُ الْبَرَايَا حَوْلَهُ الْقَلْقُ.» (المصدر نفسه)  
ثم يصف الظلام والسواد الذى سيطر على العالم إثر هذه الجرائم مشيراً إلى الطفل الرضيع الذى أصيب بالجنون إثر انفجار قنبلة وهو يعدو:  
«وَأَنْقَضُ - مِنْ حَيْثُ تَهْوَى الشَّمْسُ غَارِبَةً - / لَيْلٌ مِنَ الْقَاصِفَاتِ السُّودِ أَوْ شَفَقُ /  
جَنَّ الرِّضِيعِ الَّذِى يَجُوبُ وَهَبٌ عَلَى / رِجْلَيْهِ يَعدُو وَيَلْوِى جِسْمَهُ الْعُنُقُ.» (المصدر نفسه: ٤٥٠)

يتحدّث الشاعر عن أولئك الذين يرغبون السلام والصدقة ويريدون أن يسود ذلك فى أرجاء العالم، كأنهم يطلقونه كحمامة بيضاء فى السماء:

«هَذِى الْيَدُ السَّمْحَةُ الْبَيْضَاءُ كَمْ مَسَحَتْ / جُرْجًا وَكَمْ أَزْهَقَتْ أَنْفَاسَ جَبَّارٍ / وَأَطْلَقَتْ  
فِى الدُّجَى الْأَعْمَى حَمَامَتَهَا / بَيْضَاءَ كَالْمَشْعَلِ الْوَهَّاجِ فِى غَار.» (المصدر نفسه: ٤٤٧)  
إلا أنّ جهدهم يخفق ولا يتحقق آمالهم فى انتشار السلام إلا بالثورة والقيام ضدّ الرقّة

والعبودية وانهيار الطاغوت التي تشبه في ظلامه بالليل فيستيقظ بذلك الشعوب من الغفلة خاصة الشعوب الشرقية:

«لَيْلُ الْعُبُودِيَّةِ التَّكْرَاءِ صَدْعُهُ / مَهْوَى طَوَاغَيْتٍ وَاسْتَبْسَالُ ثَوَارٍ...» (المصدر نفسه:

٤٥٣)

وفى قصيدته "الأسلحة والأطفال" يتحدث السيّاب عن الذين يتجرّون الموت ويعطون الهلاك والدمار للبشرية بتجارتهم الأسلحة والآلات الحربية فيسيطر على شعره أجواء الموت باستخدامه كلمات الدّم، والنّار والدّخان إضافة إلى اللون الأسود: «يُحُوكُ الرِّدَى غَزْلُهُ الْأَسْوَدَ / دَمًا أَوْ دُخَانًا، يُحُوكُ الرِّدَى / شُبَاكًا مِنَ النَّارِ حَوْلَ الثُّبُوتِ / عَلَى صَبِيَّةٍ أَوْ صَبَا يَا تُمُوت.» (المصدر نفسه: ٣٠٣/١)

يمتاز شعره باستخدام الأسطورة خاصة الأساطير اليونانية، فقد يوفّق الشاعر بين معناه المقصود وما يدلّ عليه الأسطورة واللون والمفردات الأخرى وكأنّه يضيف شعره لونا من الجمال والإبداع:

«تَمُوزُ يُمُوتُ عَلَى الْأَفْقِ / وَتَعُورُ دِمَاهُ مَعَ الشَّفَقِ / فِي الْكَهْفِ الْمُعْتَمِ، وَالظَّلْمَاءِ / نَقَالَةَ إِسْعَافِ سَوْدَاءِ / وَكَأَنَّ اللَّيْلَ قَطِيعُ نِسَاءِ؛ / كَحَلٍّ وَعِبَادَاتُ سُودِ / اللَّيْلِ خِبَاءِ / اللَّيْلُ نَهَارٌ مَسْدُود.» (المصدر نفسه: ١٨٧/١)

فيرمز التّموز هنا إلى «الخصب والحياة وموته موتها.» (عباس، ١٩٨٣م: ٢٤٧) فيحاول الشاعر أن ينتقل من وصف الذبول والموت فى الطبيعة ونضارتها إلى ما يعانى شعبه من الجوع والفقر. فالانسجام بين الأسطورة (موت التّموز) ومفردات: (المعتم، والظلماء، والكحل) يرسم أمام المخاطب صورة الحزن والألم والخوف عند الشاعر.

وقد يتأثر الشاعر بترائه الأدبى ويجعل الأسود لون الحداد والماتم فيقول فى رثاء شهيد من الشهداء:

«شهيد العُلا لن يسمَع اللومَ ناديه / وليس يرى باكيه من قد يعاتبه / طَوَاهُ الرِّدَى

فَالْكَوْنِ لِلْمَجْدِ مَاتَمَ / مَشَارِقُهُ مُسَوَّدَةٌ وَمَعَارِبُهُ.» (سيّاب، ٢٠٠٠م: ٢/٤١٠)

فيلبس المشرق والمغرب فى فقدانه ثوب الماتم وهو الأسود. وقد يدلّ بنية الكلام



على أنّ اللون الأسود جاء بمعنى الموت ذاته، ففي قصيدته "رحل النهار" تحدّث الشاعر عن رحيل سندباد (رمز الثورة والحريّة والمغامرة) الذي لا يعود وعن رحيل النهار (رمز النور والضياء):

«رَحَلَ النَّهَارُ/ هَا إِنَّهُ انطَفَأَتْ زُبَالَتُهُ عَلَيَّ أَفُقُ تَوْهَجٍ دُونَ نَارٍ/ وَالْبَحْرُ يَصْرُخُ مِنْ وَرَائِكَ بِالْعَوَاصِفِ وَالرُّعُودِ/ هُوَ لَنْ يَعودَ/ أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ أَسْرَتُهُ آلِهَةُ الْبِحَارِ/ فِي قَلْعَةٍ سُودَاءَ فِي جَزْرِ مِنَ الدَّمِّ وَالْمَحَارِ/ هُوَ لَنْ يَعودَ/ رَحَلَ النَّهَارُ/ فَلْتَرَحُلِي هُوَ لَنْ يَعودَ.»  
(المصدر نفسه: ١٤١/١)

فيكشف النهار والسندباد في شعر السياب عن ثورة وحريّة وأمل في مجتمع أو بيئة خاصة، لكنّه أسر في قلعة سوداء أحاطها الدّم. فهذه الصورة التي يرسمها الشاعر يدلّ على فشل الثورة وخمود ضوء الأمل في المجتمع فيغطّي الأفق بالعواصف والرعود ويسيطر على القصيدة أشكال الموت والخوف. واللون الأسود يقوّى معنى الشعر وهو الموت:

«الْأَفُقُ غَابَتْ مِنَ السُّحُبِ الثَّقِيلَةِ وَالرُّعُودِ/ الْمَوْتُ فِي أَثْمَارِهِ وَبَعْضُ أُرْمِدَةِ النَّهَارِ/ الْمَوْتُ مِنْ أَثْمَارِهِنَّ وَبَعْضُ أُرْمِدَةِ النَّهَارِ/ الْخَوْفُ مِنْ أَلْوَانِهِنَّ وَبَعْضُ أُرْمِدَةِ النَّهَارِ/ رَحَلَ النَّهَارُ/ رَحَلَ النَّهَارُ.» (المصدر نفسه)

ومّا يجدر بالذكر أن الشاعر يلجّ على رحيل امرأة تنتظر مجيئ سندباد من سجنه في القلعة السوداء والسحب التي تمطر الموت على الأرض فيبدو أن الشاعر يقصد من المرأة مجتمعاً متحضراً يتلاشى أركانه برحيل السندباد ورحيل النهار منها. وربّما تدلّ القلعة السوداء على المصائب التي توجد في طريق عود النهار والسندباد (أى عود الحريّة والحياة والأمل) إلى هذه المدينة لبناء حضارة جديدة متقدّمة.

ويتّضح ممّا قيل أن للأسود دلالات سلبية في شعر السياب وهو ليس بغريب، لأنّه يحكى خصائص الشاعر النفسية والروحية وممّا يجب الانتباه إليه أن الأسود يستخدم أحياناً بمعنى الجمال والحسن في وصف المرأة وما بها من جمال. فالمرأة في البيئة العربية ترمز إلى الجمال، توصف بشعرها الأسود وعيونها السوداء وهذا اللون اتصل في شعر السياب بأحبّته متأثراً في ذلك بتراثه الأدبي القديم:

«مَاذَا تُرِيدُ الْعَيُونَ السُّودُ مِنْ رَجُلٍ / قَدْ حَاشَ زَهْرُ الْخَطَايَا حِينَ لَاقَاهَا.» (المصدر نفسه: ٢٠١/١)

«عَيْنَانِ سُودَاوَانِ أَصْفَى مِنْ أَمَاسِي اللَّقَاءِ / وَأَحَبُّ مِنْ نَجْمِ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَرَاعِي وَالرُّعَاءِ.» (المصدر نفسه: ٥٥/١)

«عَطَّرْتُ أَحْلَامِي بِهَذَا الشَّدَى / مِنْ شَعْرِكِ الْمُسْتَرْسِلِ الْأَسْوَدِ.» (المصدر نفسه: ٦٣/١)

والأخير عن اللون الأسود في شعر السيّاب أنه استخدم صريحاً كما تدلّ عليه مفردات: الليل، والدّخان، والظلمة، والديجور، والغبراء، والرّماد، والحزن و... وغير مباشر.

### اللون الأبيض

والأبيض من أهمّ ميزاته أنّ «له كيفية إيجابية مهيّجة، ومضيئة، ولطيفة ودقيقة.» (على أكبرزاده، ١٣٧٥ش: ٧٨) ومن أبرز معانيه الرمزية الطهارة، والعصمة، والبراءة، والفرح والانتصار. الأبيض يرمز إلى السّلام ونهاية الحرب، فلذلك راية السّلام بيضاء، لأنها «علامة التسليم، ومشاركة الحرب، والصدّاقة وحسن التفاهم.» (كوبر، ١٣٧٩ش: ١٧٢) وهو يخالف السواد والظلمة ويقابل الليل كالنهار. الأبيض لون يحبه القلوب، لأنّه يبعث الأمل ويسبّب المحبّة والودّ إلى أن يتداعى الطهارة والبراءة والتفوّل.

يحتلّ الأبيض المكانة الرابعة في أشعار السيّاب بين الألوان التي استخدمها وهو أيضاً جاء بصورة صريحة وغير صريحة. والسيّاب شاعر يأمل السعادة والسّلام والنصر للشعب العراقي رغم ما كان يعاني هو وشعبه من الحزن والألم فاستعان باللون الأبيض للتعبير عن السّلام والأمل والحريّة. فعندما يصرّو الحرب بين المستعمرين يراهم تجاراً يشعلون نار الحرب ويقطعون أيدي الشعوب السمحاء فيقول:

«هَذِي الْيَدُ السَّمْحَةُ الْبَيْضَاءُ كَمْ مَسَّحَتْ / جُرْحاً وَكَمْ أَزْهَقَتْ أَنْفَاسَ جِبَّارِ.» (السيّاب، ٢٠٠٠م: ٤٤٧/٢)

يصف أيديهم وهي بيضاء تمسح الجروح وتهلك المستبددين. فهذه الأيدي هي تنادى

بالسّلام والصدّاقة في العالم لأنّه يواصل قائلاً:

«وأطلّقت في الدّجى الأعمى حمّامتها/ بيضاء كالمشعل الوهّاج في غار.» (المصدر نفسه)

فالأيدي البيضاء تطلق الحمامات البيضاء في العالم الذي يسيطر عليه ظلام الظلم كمشعل يضيئ الطريق أمام البشرية. فالحمّامة البيضاء ترمز إلى السّلام والودّ والحريّة كما يعبرّ الدكتور الصّانع أنّ «للأبيض إيجاءات وإشارات مختلفة يدلّ على البراءة والطهارة كما يدلّ على الخير والسّلام.» (الصّانع، ٢٠٠٣م: ١١٨) فقد استخدم السيّاب الحمّامة البيضاء للدلالة على السّلام في بلده العراق والذي يضمن السعادة والرفاهيّة لشعبه وبضيئ لهم الطريق ويخرجهم من الظلمات. فالعبارة "الدّجى الأعمى" يمثّل الظلم والفساد والدمار والحمّامة التي حلّقت في سماء بلاد العالم الثالث، ولطمت على وجه الظلام وهي تمهد الطريق للفجر والانتصار وكذلك بصوّر التضاد الدائم بين الخير والشر، والبياض والسواد، والحرب والسّلم في شعر السيّاب ويؤكد على ايمان الشاعر بالوصول إلى النصر لأنّه يذكر آثار السّلم بتعابير مختلفة:

«كأنّما فجّرت ماء لظامّة/ أو أطلّعت كوكبا يأمّمه السّارى.» (السيّاب، ٢٠٠٠م:

٤٤٧/٢)

استخدم السيّاب مصطلح "اليد البيضاء" في قصيدة أخرى يعبرّ عن اتجاهاته الشيوعيّة ويصف فيها بطولات الشباب وأصدقائه:

«حركت في المستقبل الدّاجي يداً/ بيضاء تمسّح أدمع البؤساء.» (المصدر نفسه:

٤٩٧/٢)

كان يعتقد الشاعر أنّ الشيوعيّة يحقّق النصر للعراق ويخلص الشعب من الاستعمار، فيصف يدها بيضاء وهي تحاول أن تحفظ الضعفاء في مستقبل العراق المظلم والأسود، تمسح الدموع من عيون البؤساء وتهب السعادة للشعب العراقي عندما تغلب على أعدائهم المستعمرين.

وقد استعمل اللون الأبيض في التراث الأدبي القديم للدلالة على الجمال كالأسود. فاستخدمه العرب للتعبير عن جمال المرأة لأنها كانت محبوباً عنده كما وصف الله تعالى

المرأة في كتابه بصفة البيضاء:

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (صافات: ٤٩)

فانعكس ذلك أيضاً في أشعار الشاعر واستفاد من اللون الأبيض لوصف المرأة منها:

«وَأَهَاءَ لِأَجْسَادِ الْحَسَانِ! أَيْكُلُ اللَّيْلُ الرَّهِيْبُ / وَالذُّوْدُ مِنْهَا، مَا تَمَنَّا هُوَى؟.»

(السياب، ٢٠٠٠م: ١ / ٢٨٨)

وقد يضيف المعنى الرمزي إلى المعنى الجمالي ويدل على الطهارة والبراءة في المرأة أيضاً:

«هِيَ الَّتِي بِالْأَمْسِ كَانَتْ كَمَا / رَجَى خَيَالٌ لِلْهُوَى الْأَوَّلِ / يُوجُّ فِي مِرَاتِهَا ظِلِّهَا /

سَوْسَنَةٌ بِيضَاءَ فِي جَدُولِ.» (المصدر نفسه: ٢ / ٤٤٩)

«فراى الشاعر وجه المرأة سوسنة حسناء، أما اللون الأبيض فقد زاد الصورة جمالاً وخيالاً وذلك لأنّ اللون يعدّ من العناصر الهامة في خلق التشابه والاستعارات والصور الحسية والمتحركة.» (شفيعى كدكنى، ١٣٧٠ش: ٢٧١) وفي قصيدة أخرى يخاطب الشاعر حبيبته مشبهاً أقدامها البيضاء وسط الأعشاب الخضراء بفراشة بيضاء، فالتشبيه هذا يدلّ على جمال المحبوب إضافة إلى براءتها وطهارتها:

«أَيْنَ مِنْهُمْ خَفَقَ أَقْدَامِكِ الْبِيضَاءِ بَطْنَ الْحَشِيْشِ فَوْقَ اخْضِرَارِهِ / مِثْلَ نَجْمَتَيْنِ أَفْلَتَا

مِنْ مِدَارَيْنِ / فَجَالَ الضِّيَاءُ فِي غَيْرِ دَارِهِ / أَوْ فَرَّاشَيْنِ أبيضَيْنِ اسْتَفَاقًا يسْرِقَانِ الرَّحِيْقَ

مِنْ حُمَارِهِ.» (السياب، ٢٠٠٠م: ١ / ٨٣)

وأحياناً يستعين الشاعر بالنور الذى يدلّ على اللون الأبيض غير مباشر لوصف ما

في حبيبه من الحسن والجمال:

«كَمْ عَاشِقٍ كَانَتْ أَمَانِيْهِ أَنْ / يَرْتَشِفَ النُّورَ عَلَى جِدِّهَا.» (المصدر نفسه: ٢ / ٢٥٣)

وقد تدلّ النجوم على اللون الأبيض والذى يستخدمها الشاعر لوصف جمال المرأة

وهى أيضاً تدلّ على البراءة والطهارة فيها:

«أَنْتُنَّ أَسْعَدَ مَا أَظَلَّ الْكَوْنَ يَا زَهْرَ النُّجُومِ / أَنْتُنَّ أَبْصَرْتُنَّ ذَاكَ الْوَجْهَ فِي اللَّيْلِ

الْبَهِيْمِ.» (المصدر نفسه: ١ / ١١١)

وفي قصيدته "ليلة القدر" تأثر الشاعر بسورة القدر ويصف فيها أجنحة الملائكة بيضاء تعبيراً عن صفاءها وطهارتها أيضاً:

«لَيْلَةُ الْقَدْرِ نُورًا أَضَاءَ لَنَا/ قَاعَ السَّمَاءِ فَأَبْصَرْنَا مَدَى عَجْبًا/ تَنْزَلَ الرُّوحُ رِفَافًا  
بِأَجْنِحَةٍ/ بِيضٍ عَلَى الْكَوْنِ أَرْخَاهُنَّ أَوْ سَحَبًا.» (المصدر نفسه: ٥٣٤/٢)

وقد يلزم الأبيض حركة المياه لما فيها من الهدوء والطمأنينة ليقصد الشاعر منها إلى الراحة والرفاهية والهدوء الذي يلزم حياته فيصف جدول ماء أحاطته الغمام البيضاء وهي تسير هادئاً مع خريير المياه:

«وَأَغِيبُ فِي نَعْمٍ يَدُوبُ.. وَفِي غَمَائِمٍ مِنْ عَبِيرٍ/ بِيضَاءَ مِكْسَالِ التَّلْوَى تَسْتَفِيقُ عَلَى  
خَرِيرٍ.» (المصدر نفسه: ٦٣/١)

ويمكن أن نقول إنَّ الأنهار التي كانت تجرى في قرية الشاعر تلهمه هذه الصورة فهي إذن ترتبط بحياته الذاتية وهدوءها وسكونها.

تتصف الأمور المعنوية كالحسيّة بالألوان في أشعار السيّاب منها "الرؤى" التي يراها الشاعر بيضاء:

«خَيَالُكَ أَضْحَى لِابِسَا مِنْ فَوَادِيَا/ رِءَاءِ مُوشَى بِالرُّؤَى الْبِيضِ حَالِيَا.» (المصدر نفسه: ٤١٥/٢)

يخاطب الشاعر هنا خيال حبيبته ويصفها بيضاء «ليرسوم صورة جميلة منها، لأنَّ قلبه يبدل إلى رداء ملوّن بخيال المحبوب البيضاء التي تلبس هذا الرداء.» (آل موسى، ٢٠٠٨م: ٤٦٣) فطهارة المحبوب وبراءتها هي التي تدفع الشاعر ليصف خيالها بيضاء كأنه يأمل أن تتحقّق تلك الرؤى. فقد صور الشاعر الأمور المعنوية ملوّنة ليجعلها محسوساً ملموساً للمخاطب.

يتخذ اللون الأبيض دلالة سلبية في أشعار السيّاب إضافة إلى دلالاته الإيجابية، فيدلّ على اقتراب الموت والانفصال عن الدنيا وفراقها وذلك بأن يرتبط الأبيض بالشيب ويذكر السيّاب إلى جانب ذلك أمارات الشيخوخة الأخرى من العضا:

«وَالْمَرْءُ لَا يَمُوتُ إِنْ لَمْ يَفْتَرِسْهُ فِي الظَّلَامِ ذَيْبٌ/ أَوْ يَخْتَطِفُهُ مَارِدٌ، وَالْمَرْءُ لَا يَشِيبُ/  
فَهَكَذَا الشُّيُوخُ مِنْذُ يُولَدُونَ/ الشَّعْرُ الْبَيْضُ وَالْعَصَى وَالذُّوقُونَ.» (المصدر نفسه: ١٠٣/١)

## الجدول الإحصائي للونين الأسود والأبيض في أشعار السيّاب:

اللون	البواكير	فيثارة الريح	أعاصير	أزهار وأساطير	فجر السلام	أنشودة المطر	المعبد الغريق	منزل الأفتان	شناشيل ابنه الجليبي	هدايا	الكمية
الأسود	٢	٨	٦	٦	٢	٢٣	٦	٣	٨	٢	٦٦
الابيض	٢	٥	١	٥	٤	٩	٦	١	٥	٥	٤٢

إنّ الأعداد المذكورة في الجدول تدلّ على غلبة الأسود على الأبيض في أشعار السيّاب والصور الشعرية التي استخدم فيها الشاعر هذين اللونين بكميتهما المختلفة تبين أنّه كان قد نفر الأسود باحثاً عن البياض والفجر والصبح.

«قال علماء النفس عن الأسود بأنّه ينفي ذاته وهو رمز يتوقّف عنده الحياة ويوحى الهلاك والخلاء وهو يقابل البياض الذي يشبهه صفحة فارغة تكتب عليها القصة، لكنّ الأسود هو النقطة الأخيرة لها ولا يوجد وراءها شيء. والشخص الذي يختاره كأنه ينفي كل شيء ويعترض بما يجري حوله لأنّ الحياة والظروف ليست كما يريد هو فيقف أمام مصيره.» (لوشر، بيتا: ٩٧-٩٨)

اشتهر شاعرنا السيّاب بشاعر الوجع لما شاهد من آلام الفقر والجوع والمرض طوال حياته التي كانت مليئة بالهموم النفسية كما وجد ما كان يعاني شعبه من الحزن والمشاكل لأجل الاستعمار والحكّام الظالمين فاختر الأسود تعبيراً عن تلك المعاني والظروف التي تبين اشمئزاز الشاعر منها وهي واضحة في أشعاره.

ومن جانب آخر إنّ النماذج الكثيرة من اللون الأسود إلى جانب المفردات التي توحى بالسواد غير مباشرة مثل الليل والظلام وغيرها تدلّ على أن الشاعر يحتاج إلى الهدوء والطمأنينة والخلّاص من المشاكل؛ «لأنّ الإنسان مهما كانت حاجته بالهدوء أكثر كان ميله إلى الألوان الداكنة أكثر غريزياً وعكس ذلك أنه إذا أراد أن يطلق طاقاته

بالعمل أو النشاط الذهني يميل إلى الألوان الفاتحة.» (المصدر نفسه: ٢٦) كما أن كمية استخدام الشاعر للون الأبيض دليل على عدم يأسه من الحياة بل هو يأمل بالفرج.

## النتيجة

ومن مستجدات البحث هي ما يلي:

أنّ الأسود عند الشاعر يعدّ من أهم الألوان وأكثرها استعمالاً ولعلّه ينبعث من حياته الذاتية وما عانى فيها من الآلام والهموم كما يرجع إلى التزامه الاجتماعي. كان السيّاب يتألّم بما يواجهه في مجتمعه من الأحداث والفجائع، فانعكس اللون الأسود في شعره أكثر من غيره واتّخذ تعبيراً سلبياً عن تجارب الشاعر وحزنه أو حزن شعبه كما وصف به الشاعر ظلم الحكام وفسادهم وقد استخدمه للتعبير عما حلّ به من اليأس إثر الحياة وغلبة الموت عليها.

قد يقابل الأسود والأبيض كشفاً عن التضادّ بين الخير والشرّ في الكون وأحياناً يتأثر الشاعر بتراثه الأدبي القديم ويضفي الأسود طابعاً تراثياً في الدلالة على المآثم والحداد أو تعبيراً عن جمال المرأة في عيونها وشعرها.

أما الأبيض فمن أبرز معانيه الرمزية ودلالاته الإيجابية هو النور والبراءة والصمت والطهارة والهدوء. استخدمه السيّاب للدلالة على القدرة والطاقة عند المجاهدين وطالبي السلام كما يرسم جمال المرأة وحسنها وطهارة الحبيب وبراءتها مستعيناً باللون الأبيض.

وقد يأتي البياض تعبيراً عن الحرب ودمارها تصويراً لتقابل الخير والشرّ. كما أنّ النماذج التي استخدم فيها الشاعر اللون الأبيض تبين أنه يتّخذ دلالات سلبية كالأسود.

## المصادر والمراجع

آل موسى، على على. ٢٠٠٨م. شعرية القلق عند بدر شاكر السيّاب. الطبعة الأولى. بيروت: دار الأولى.

توفيق، حسن. ١٩٧٩م. شعر بدر شاكر السيّاب دراسة فنية وفكرية. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- دياب، محمد حافظ. ١٩٨٤م. «جماليات اللون في القصيدة العربية». مجلة الفصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. العدد ٥.
- السيّاب، بدر شاكر. ٢٠٠٠م. الأعمال الشعرية الكاملة. الطبعة الثالثة. بغداد: دار الحرية للطباعة والنشر.
- شفيعى كدكنى، محمد رضا. ١٣٧٠ش. صور خيال در شعر فارسى. الطبعة الرابعة. طهران: انتشارات آگاه.
- شى جى وا، هيداكى. ١٣٧٧ش. همنشيني رنگها. ترجمه فريال دهدشتى، ناصر پورپيرار. الطبعة الأولى. طهران: نشر كارنگ.
- صائغ، وجدانغ. ٢٠٠٣م. الصور الاستعارية فى الشعر العربى الحديث. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عباس، إحسان. ١٩٨٣م. بدر شاكر السيّاب دراسة فى حياة وشعره. الطبعة الخامسة. بيروت: دار الشروق.
- عصفور، جابر. ١٩٨٣م. الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى عند العرب. الطبعة الأولى. (لامك): دار الحوار.
- على أكبر زاده، مهدى. ١٣٧٥ش. رنگ و تربيت. الطبعة الثانية. طهران: انتشارات ميسا.
- محمد عبيدات، عدنان. ٢٠٠٤م. الأداء باللون فى شعر المتنبى. مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية. العدد ٣.
- لوشر، ماكس. ١٣٨٦ش. روان شناسى رنگها. ترجمه ويدا ابى زاده. الطبعة ٢٣. طهران: انتشارات درسا.
- محمد على، إبراهيم. ٢٠٠١م. اللون فى الشعر العربى قبل الإسلام قراءة ميثولوجية. الطبعة الأولى. طابلس: جروس برس.